ظاهرة العنف الديني ...
لمـــاذا؟

© مكتبة العبيكان، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المركز العالمي للاستشارات الإستراتيجية

ظاهرة العنف الديني لماذا؟. /المركز العالمي للاستشارات الإستراتيجية. - الرياض، ١٤٢٥هـ.

٤٣ ص؛ ١٤X٢١سم

ردمك: ٥-٥٥٧-٤٠-٩٩٦٠

١- العنف أ - العنوان

ديوي ٣٠١,٦٣ ١٤٢٥/٥٩٣

ردمك: ٥-٥٥٧-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٥/٥٩٣

الطبعة الثانية

١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

توزيع

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

سعيد صالح الغامدي

ظاهرة العنف الديني..
لـــماذا؟

المركز العالمي للاستشارات الإستراتيجية

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة..

التفجيرات الأخيرة التي حدثت في الرياض (صيف ٢٠٠٣) شكلت ملمحا خطيرا اهتز له كل من يدرك أن لهذه العمليات أبعادها وتأثيراتها سواء في المستقبل، أو على الأمن والاستقرار، أو حتى على صورة ومستقبل الإسلام... وقد ذهب أصحاب الفكر والمحللون والمراقبون مذاهب شتى في قراءة ما حدث، وكانت الكثير من تلك الآراء مجرد بيانات أو تحليلات لا معنى لها، لأن المهم الآن هو الحؤول دون تنامي مثل هذه العمليات وهو أمر لا يتسنى إلا بإضعاف أو إنهاء نقطة الارتكاز الدينية والفكرية عند الذين يقومون بمثل هذه العمليات، ويبدو اليوم أكثر من أي وقت مضى أن المعالجة لمثل هذه القضية لا يمكن أن تكون مجرد ردات فعل ظرفية، لا بد من معالجة مدروسة قادرة على الاحتواء الفعلي للظاهرة، وهذه

المعالجة لا يمكن أن تكون ناجحة إذا هي تنكبت الدقة وصارت مجرد عمل عشوائي تحكمه السطحية، لذلك رأى المركز العالمي للاستشارات الإستراتيجية وضع هذه الرؤية التي يراهن على أنها تبقى قبل كل شيء وبعده الطريقة المثلى لمواجهة هذه الظاهرة مواجهة ناجحة، إذ أن الملامح العامة، وتجميع أجزاء الصورة مما يحدث هنا أو هناك يدل على أن هناك مشروعا متكاملا يقوم على خيار العنف والعمل المسلح، والمشروع لا يقابَل إلا بمشروع، إذ لا يمكن مواجهة كيانات منظمة قائمة على أفكار مدروسة الأساليب والطرق والأهداف بمجرد خطبة هنا أو بيان هناك أو تنديد هنالك.

لا بد من مشروع متكامل ودقيق يعمل أول ما يعمل على فهم صورة لما يحدث، ذلك لأن من الواضح أن الكثير ممن يتوجب عليهم البيان والمواجهة اليوم أناس هم أنفسهم في حيرة وتخبط لا يكادون يحسمون رأيا حتى يتشككون بآخر، والمواجهة لا تكون إلا بالقناعة، وهي القناعة التي طلبها إبراهيم عليه السلام حين قال: (رب

أرني أنظر إلى وجهك)، وبانعدام هذه القناعة يضعف الموقف والحجة وتعم الضبابية والتي تخالف الوضوح الرسالي في الإسلام مبدأ ووسيلة وغاية، والقناعة عند الذين يفترض فيهم تحمل مسؤولية مواجهة واحتواء ظاهرة العنف من العلماء والدعاة قناعة لا تصل إلى حد (المباهلة)، وهنا يظهر حذق عالم عن آخر، إذ أن حفظ المتون والتواليف أمر قد تتساوى أو تتقارب فيه حظوظ جميع العلماء، بينما يبقى أمر تقدير الواقع وما ينجر عنه في المستقبل من شأن العلماء والدعاة المتميزين أصحاب القدرات والطاقات والبراعات الشخصية التي لا ترجع؟إلى الحفظ بل إلى أمور أخر، وفي هذه النقطة بالضبط سبق أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وظهر عليه، والأوقات الحاسمة تتطلب ممن يريد تجاوزها بسلام الرأي الراشد والنظرة الدقيقة الواضحة والموقف الحاسم، وكان ذلك كله من نصيب أبي بكر الصديق رضي الله عنه فأمام واقع الردة والفتن، والمشكلة الكبرى أن الكثير من الدعاة والعلماء اليوم لا يستطيع بناء قناعة خاصة صحيحة

ومنطقية نتيجة لتشوش الأفكار وتداخل الاحتمالات ممـــا يجعل الإسلام ودعوته وواقعه يتعرض لخسارات كـــبرى وتراجعات مذهلة، وهذا حتم كذلك أن يـــأخذ المركـــز مسؤوليته في تقريب الصورة وتوضيحها وإخراجها مـــن حالة الغبش والضبابية وبذلك وحده (تطمئن القلـــوب) وتحتشد الجهود نحو هدفها الواضح

سعيد صالح الغامدي

البرنامج لا الاعتباط

يجتمع أربعة بنائين، ويقوم كل واحد منهم ببناء جدار في مكان بعيد عن المكان الذي يبني فيه الآخر جداره... والنتيجة أربعة جدران متباعدة لا تشكل بيتا... الجهود المبذولة ذاتها، والجدران نفسها يمكن أن تشكل بيتا إذا جرى التنسيق بين البنائين وتم تحسيس كل واحد منهم أنه يمثل جزء من مشروع كبير وهو البيت، بعكس إحساسه في الحالة الأولى أنه يمثل مشروعا كاملا يبتدئ وينتهي عنده وهو الجدار.

عقلية البرنامج الحاشد للطاقات والمنظّم للجهود في صعيد واحد، هي النقطة الفاصلة بين المشروع وبين العشوائية، وفي المملكة العربية السعودية اليوم الكثير من الطاقات، علماء ودعاة ومفكرين وعلماء نفس وعلماء اجتماع وإعلاميين ومنظرين و... وهؤلاء كلهم يمكن أن يُستوعبوا في ورشة عمل توعوية تقدّم الكثير، وهذا لا يتم

إلا بضبط منطلقات ومتبنيات توضح بدقة الهدف والوسائل والطرق وتحدد الخطاب، وبذلك تنطلق العملية من اتفاق تتقاسم فيه الواجبات كل حسب موقعه وما يمكن أن يقدمه مما هو ميسر له... لذلك يرفع المركز مظلة لالتقاء من يمكن أن تتكون منهم نواة فريق العمل، كما يعتبر هذه الدراسة مشروعا يمكن أن ينطلق منه العلماء والدعاة في إطار البرنامج التوعوي الذي يجب أن يكون بمستوى التحديات المطروحة.

إن جمع عشرين داعية في إطار برنامج مدروس تُضبط فيه حدود الخطاب، من شأنه أن يقدم نتائج لا يمكن بلوغ عُشرها عبر الحملات وردات الفعل الفوضوية التي قد يكسر فيها هذا جهد ذاك ويهدمه لعدم وجود تنسيق أو اتفاق بينهما.

☆☆☆

خطأ توسيع دائرة المدافَع عنهم

من أكبر الأخطاء التي يرتكبها منتقدو الفكر العنيف ومناقشوه خطأ الربط بين الحالات، وطبعا فإن بداية فشل مشروع الإقناع بسلبية وعدم مشروعية العنف وعمليات التفجير يبدأ من النقطة ذاتها التي تتماهى فيها المتباينات وتختلط فيها المحدودات، لذلك فهناك فرق بين أن يدافع شخص عن أمن بلد مسلم ليكن هنا المملكة العربية السعودية، وبين أن يعمم هذا الدفاع المستميت ليكون دفاعا عن الولايات المتحدة الأمريكية أو إسرائيل أو غيرها، لذلك فالمسألة محسومة منذ البدء، والدعاة إلى استتباب الأمن وتحريم العمليات المسلحة يحشرون أنفسهم في الزاوية الضيقة ويضعفون موقفهم بأنفسهم حين يلقون الكلمات على عمومها ويحسبهم الآخرون أنهم تحولوا إلى أبواق مأجورة أو منبطحة، وهنا تكون تهمة الخيانة جاهزة، لذلك فمن المصلحة الدينية والوطنية المحافظة على

سمعة وتأثير العلماء والدعاة عند الناس، لأن احتراق هؤلاء الدعاة والعلماء معناه ضعف القوامة الدينية لهؤلاء على الناس، ولأن الحياة تأبى الفراغ فإن الناس سيلجؤون عند ذهاب سمعة العلماء والدعاة إلى اتخاذ رؤوس جهال يُستفتون فيفتون بدون علم، وآنذاك تعم الفتن ويكثر الباطل باعتباره حقا وشرعا، لذلك فمما يجب أن يكون حاضرا وواضحا في الأذهان هو تخصيص المدافع عنه، إذ ليس من مهمة أبناء الأمة أن يدخلوا في صراع بينهم من أجل الدفاع عن هذه الجهة أو تلك، لأن مثل هذا التناوش والصراع الدائر حول أمن الآخر (الأجنبي)، من شأنه أن يضعف ويزلزل أمن الأمة ويحدث فيه الشروخ، وآنذاك فما يهم المسلمين إن هم خسروا أمنهم من أجل أمن الآخر؟!هنا يظهر الفارق بين العاقل والمتنطع، فالعاقل لا يدخل في متاهات يخسر فيها كل شيء لأجل لا شيء، كما أنه لا يحب الإجابة عن أسئلة فاتنة خطيرة لم يطلب منه أحد الإجابة عنها، أما المتنطع فإنه يدخل في القضية وفي لازمها ويوغل حتى ينتهي به الأمر إلى أن يجد نفسه

في واقع لا يحسد عليه، وقد انتهى الأمر ببعضهم إلى الدخول في مداخل مهينة خسروا فيها دينهم وسمعتهم دون أن يلزمهم أحد بالدخول في ذلك، إن المتنطع بهذا يسيء كثيرا إلى نفسه وأمته إذ يدخل في متاهات يفضي فيها رواق الضلال والتيه إلى رواق ضلال وتيه غيره، وبذلك يفقد انضباطه، لذلك ليس مطلوبا من علماء الإسلام ودعاته أن يجرهم واجب الدفاع عن المملكة السعودية أو عن أي مصلحة إسلامية أخرى إلى الدفاع عن كيانات أخرى لها من يدافع عنها من أبنائها م، مع اختلاف وسيلة الدفاع بين العلماء وتلك الكيانات الأخرى، لذلك يقال أنه ليس من المطلوب من العلماء والدعاة أن يدخلوا تحت المظلة الأمريكية وفي البرنامج الأمريكي الذي تسميه واشنطن بـ (حرب الإرهاب)، وتعني به ما لا يعنيه بل ما لا يقبل به المسلمون في مواجهتهم للأفكار العنفية، إذ معلوم أن هذا البرنامج العالمي للولايات المتحدة الأمريكية لا يستفز فقط ولا يلقى الرفض فقط عند إجماعات العنفية المسلحة، بل حتى عند

غيرهم من السياسيين والمفكرين ومجموع أبناء الشعوب الإسلامية وحتى بعض الشعوب الأخرى، كون هذا البرنامج العالمي في حرب الإرهاب يقوم على معطيات ورؤى لا تتفق مع معطيات مصلحة الأمة ولا مع مقرراتها الشرعية، لذلك تقف حتى بعض الدول الأوربية ضد ما يسمى بالحرب الوقائية فيه وضد اتخاذه مظلة للتوسع العسكري والاقتصادي المصلحي في العالم.

ثم أن حشر أي بلد إسلامي في ذات الخندق الذي توجد فيه الولايات المتحدة الأمريكية، وربط مصيره السياسي والأمني بمصيرها يعدّ خطأ كبيرا من الناحية الإستراتيجية وحتى المنطقية، إذ بإمكان علماء الإسلام ودعاته وبأمل مقدر بـ(٨٠) في المائة مثلا أن يجعلوا أصحاب وأشياع الفكر العنيف يعدلون عن مشاريعهم تجاه بلد مسلم مثل المملكة العربية السعودية، لكن لا يكون بإمكانهم حسب ما يدل عليه الواقع ولو بنسبة مقدرة بـ(١٥) في المائة إقناع أصحاب الفكر العنيف وخيار العمل المسلح بترك استهداف الولايات المتحدة مثلا

أو إسرائيل، مع العلم أن المعنى والتعريف الأمريكي للإرهاب لا يفرق بين عملية وقعت في حجر الكعبة وأخرى استهدفت قلب إسرائيل، وحين يُخلط الممكن بغير الممكن تضيع الأمور وآنذاك فتسليم المسلمين بربط الأمور ببعضها مشكلة كبرى، المتضرر الأكبر منها هو الدول الإسلامية التي تتعرّض لمثل هذه العمليات، والولايات المتحدة لذلك تريد جر الكثير من هذه الدول في صفها وفي حرب أعدائها وهي تدرك أن ذلك لا يكون إلا إذا تعرضت هذه الدول لضربات من طرف الجماعات العنفية، لذلك فهي تستبشر أكثر مما تقلق من عمليات تمس الآخرين وتخرج أمريكا من عزلتها في صراعها مع الجماعات المسلحة.لذلك لا بد من مراعاة هذه القضية الحساسة ورفع شعار خاص وراية ذاتية منميزة عن الراية الأمريكية رؤية وطريقة وأسلوبا وصبغة في مواجهة الفكر العنيف.

وهنا لا بد من مناقشة الاحتمالين الواردين في هذا الواقع.

الاحتمال الأول: صورته في أن يحصر العلماء والدعـلة والمثقفون أمر الدفاع في إطاره المتميز ليجعلوه دفاعا عـــن المملكة، وهو حصر له فائدته ونقاط قوته، ومن المتوقـــع انطلاقا من الحال النفسية والدوافع الدينية لأصحاب الفكر العنيف أن يحقق مثل هذا الحصر فائدة ونتائج كبرى.

أما الاحتمال الثاني فهو أن ينطلق الدعاة والعلماء مــن منطلقات عامة ومطاطة تستفز ليس أصحاب الفكر العنفي فقط، بل وجميع المسلمين وتجعلهم ينظرون إليهم على أنهم مستظلون بمظلة الغرب في حربه علــى الإســلام باســم (حرب الإرهاب)، حالبون في إنائه، مستعمَلون في الدفاع عن مصالحه وثغوره، وليس مــن مصلحــة الإســلام أن يتحول عالمه أو داعيته إلى شرطي أمريكي... وهنا لا بــد أن نبرز أن الكثير من المنظرين السياســيين والفكريــين الغربيين، سواء من واضعي (مشروع القــرن الأمريكــي الجديد) أو من غيرهم يعتبرون مقررات الشريعة كـالحدود والحجاب والالتزام التشريعي والسياسي والمفهوم المنضبـط لمعنى (الحرية).

أمورا تتعارض مع المقررات الدولية لحقوق الإنسان ومع المعنى الغربي للديمقراطية والحرية، وبالتالي فهي مندرجة في باب الممارسات التي يجب على الغرب محاربتها في إطار مشروع الحرب على الإرهاب، وهنا تبدو خطورة الانطلاق من التحديد والمفهوم الأمريكي للإرهاب وللحرب عليه.

إن هناك حساسية متنامية في الأمة الإسلامية ضد الولايات المتحدة الأمريكية، ولو على المستوى النفسي، خاصة في هذه الحقبة الحرجة، ولا شك أنه من مصلحة الولايات المتحدة أن لا تبقى الوحيدة المكتوية بالنار، لذلك فهي تستبشر بدخول غيرها معها كضحية ليتسنى لها جره معها كمنتقم في الحرب على الإرهاب، وضرب كل ما تراه إرهابا حتى ولو لم يكن كذلك.

والتعامل مع العنف ومواجهة ظاهرة العمل المسلح في المملكة العربية السعودية يجب أن يراعي هذه الحساسية، وعدم الوقوف بين المسافة الفاصلة بين أمريكا والحاقدين عليها من الشعوب والأمم، لأن ذلك يعد وقوفا أمام

هدف رماية، ولقد أبرز القرآن الكريم جليا أنه (لا تزر وازرة وزر أخرى)، وهذا نص في عدم تحميل الإنسان أو الجهة ما لا يجب أن تتحمله من كسب الآخرين، إذ كل شاة معلقة برجلها، والمملكة العربية السعودية البلد المسلم المسالم الوحيد المطبّق لحدود الله والمتبني رسميا للإسلام الصافي، البلد الذي لم يعتد يوما على شعب آمن أو دولة أخرى، والذي تربطه علاقات احترام ومسالمة مع الآخرين، لا يجب أن يرتبط بل حرام أن يرتبط أمنه بأمن بلد آخر له سياسته العالمية الخاصة تجاه الآخرين والتي خلفت الكثير من المظالم والعداوات والثارات والأخطاء الفادحة والأحقاد المتأججة ضده على امتداد الكرة الأرضية، لذلك ليس معقولا ولا منطقيا أن يقول عالم شرع أو داعية للناس: «إننا لن نقنع بنصف حل من طرف أصحاب المشروع العنيف، وعليهم أن لا يكفوا أيديهم فقط عن المملكة بل وعلى الكيانات والدول الأخرى على تباينها، ومهما كانت»، لأن هذا الربط يعد خطأ كبيرا، بسبب التباين الكبير الموجود بين الدول المستهدفة بأعمال

العنف، فلكل دولة واقعها الخاص الذي يجعــــل مســألة الدفاع عنها أو إقناع الآخر بالإنتــهاء عــن اســتهدافها وإخراجها عن مشروع أهدافه ملفا متميزا يجب الإنطـلاق منه على حدى، ودون خلط مع ملفات دول أخـــرى... فمثلا يمكن بحملة منظمة وذات أهداف ووسائل محــــددة وخطاب مدروس ودقيق أن تنهي التواجد الفكري العنفـي المستهدف للمملكة العربية السعودية، لكن لا يمكن الجـزم بأن ما يقنع أصحاب الفكر العنفي للانتهاء عن اسـتهداف السعودية سيكون قادرا أيضا على إقناعهم بعدم استهداف المصالح الروسية أو أكثر من ذلك الأمريكية أو أكثر منـها الإسرائيلية، لأن مبرر الاستهداف ودوافعه ورصيد الحقـد الدافع عليه ليس واحدا، وهنا يجب أن نضع أيدينا علــى حقيقة هامة وهي أن الولايات المتحدة مستهدفة بـالأصل، أما المملكة العربية السعودية فليست كذلـــك، والـذي استُهدف في السعودية هــم الأمريكيــون، أو الوجــود الأمريكي، وهذه نقطة في غاية الأهمية لذلـــك نــرى أن نجعلها محوراً مستقلاً وهو: بــين المســتهدف ومكــان

الاستهداف.

القراءة الصحيحة لحزمة معطيات المشهد المعقّد لا تكون إلا بتفكيكه وفصل متداخلاته عن بعضها، وهنا لا بد من إبراز نقاط هامة، منها:

دراسة ومعرفة إن كان الذين يقومون بهذه التفجيرات والعمليات يرون أنّ سفك دم المسلم حرام، والذي يظهر أن هؤلاء إلى اليوم (على الأقل) لم يصدر عنهم ما يدل على أنهم يعتقدون صراحة مثل هذا الاعتقاد، وآنذاك تأتي النقطة الثانية وهي:

ما دامت هذه الجماعات لا تستحل دم المسلم فلماذا تقوم بعمليات يموت فيها مسلمون؟!

و هنا يكون من الأهمية بمكان أن نلاحظ أن فكر هذه الجماعات يقوم على الخلفية الفقهية لمبدأ التترس في الجهاد الشرعي، إذ أن الفتاوى جاءت بجواز قتل المسلم إذا تترس به الكفار، بشرط أن تنعقد النية على عدم استهدافه بالأصل، إنما استهداف الكافر المتترس به، لذلك تظهر عند

هؤلاء مقولة: (يُبعثون على نياهم) حين يتحدثون عن هؤلاء الذين يسقطون ضحايا في أعمال لم يكونوا المستهدَفين الأصليين فيها.

و لا شك أن عدم استحلال هذه الجماعات لدماء المسلمين أصالة أمر يجب استثماره في عملية مواجهة الفكر العنفي.

و هنا يجب أن نبين خطأ النقاشات والفتاوى التي توجَّه إلى هذه الجماعات متحدثة عن حرمة دماء المسلمين، ذلك لأن هذه الجماعات لا تنكر أن دماء المسلمين لها حرمتها، بل هي فقط تجد في الشريعة التي حرمت هذه الدماء ما يعطي مبررا للذي يسفكها عن غير قصد، , الأمر شبيه هنا بين عالم شرع يسرد على قاتلٍ آيات وأحاديث حرمة قتل النفس، بينما القاتل يجيبه قائلاً: «يا شيخ لست معنيا بهذه الأبيات لأنني لم أتعمد القتل بل كنت في الصيد ورميت الطريدة فأُصيب شخص ومات»، لذلك يلاحظ أن الجماعات العنفية في واد والمستدلين عليها بالأدلة الشرعية في واد آخر، وهو ما يجعل هذه

الجماعات ترى نفسها غير معنية البتة بما يستدل به العلماء والدعاة، لذلك لا بد من تحويل التخطيء إلى مجال آخر وهو (مصلحة الإسلام)، إذ أن هذه الجماعات ترى أنها بعملها ذاك تحقق مصلحة كبرى للإسلام القائم فيها مجاهد والقاضي فيها شهيد، وهنا فقط يمكن الإمساك بهؤلاء بإقناعهم أن الذين يتوهمونه مصلحة إنما هو وهم وأنه في الحقيقة مفسدة متحققة، وأن النتائج التي ستحل من جراء أعمالهم تلك ليست هي نصر الإسلام بل تراجعه وفتنة أهله، وتبقى هذه هي اللغة الوحيدة التي يقتنع بها هؤلاء، لذلك على العلماء والدعاة أن لا يخوّفوا هؤلاء بتحميلهم مسؤولية من يموت في العمليات، بل يضعوهم وجها لوجه أمام ما أصاب الإسلام عبر التاريخ وما سيصيبه مستقبلا نتيجة مثل هذه الفتن.

لذلك وجب التركيز في الحالة السعودية على إقناع هذه الجماعات بالعدول استنادا إلى ما تجلبه على الإسلام وبلاد الإسلام من الويلات والفتن والمصائب، لأن الكثير من هؤلاء قد يظنون ـ بل من المؤكد أنهم يظنون ـ جهلا

أن البلاد الإسلامية لا تتأثر بمثل هذه العمليات التي تحدث في مجالها الجغرافي، ولا تستهدفها هي، بل تستهدف غيرها، فالواجب البيان أن المتضرر الأكبر ليس هو المستهدف أصالة والذي قد يخسر خمسة أفراد أو خمسين، المتضرر الأكبر هو البلد الإسلامي الذي حدثت فيه تلك العمليات، والذي يتعرض جراء ذلك لإحراجات ومساءلات وضغوط قد تصل بعد مساومته إلى مداهمته مثلما حدث لأفغانستان، كما يتعرّض لزعزعة أمنه وحدوث انشقاقات في صف بنيه، ابتداء بالآراء وانتهاء بالمواقف. وليست زعزعة الأمن في بلد مثل المملكة العربية السعودية أمرا بسيطا، كما أن تعريض المملكة للمساءلة والمساومة وللضغط والإحراج من طرف الآخر أمر يُقدّر بضرره المترتب عليه ومآلاته التي ينتهي إليها، ذلك لأن أول ما تُساوم عليه المملكة دائما وما يضغط عليها للتنازل عنه هو خيارها الديني الشرعي سواء في السياسة أو التربية أو غير ذلك، لذلك يتحمل المسؤولية من يعطي المبرر للقوى الخارجية الكبرى لفرض تغييرات تستهدف أول ما

تستهدف الدين في المملكة، مع العلم أنه من الجهل المدقع بل والجنون المطبق أن نعطي القوى العظمى مبررا لفرض رؤاها في أي بلد إسلامي ثم نطالب سلطات ذلك البلد بالثبات على المبادئ وعدم التزحزح عنها، ليمسي الأمر مما قصد الشاعر حين قال:

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء.

ومن مسؤولية الدعاة والعلماء هنا أن يوضحوا في حملتهم هذه المآلات والتي منها أن تتعرض المملكة لما حدث لأفغانستان أو العراق، وآنذاك يضيع أمنها، وتتحول إلى ساحة لكل ناعق، فتظهر الأحزاب الإلحادية باسم الديمقراطية، والجماعات الشاذة باسم الحرية، وتعم الأفكار الهدامة، والشرك، والبدع بتنوع الجماعات وتسقط أرض الحرمين في فتن لا آخر لها.. فتعلو منابرها طوائف وجماعات متربصة، وتعطل الشريعة، ويتراجع الإسلام الصافي.. وكل هذا يتحمله هؤلاء الذين يعطون مبرراً لدخول وقدوم الغزاة سواء تحت ذريعة ضبط الأمور أو محاربة الإرهاب.. أو.. أو..

على العلماء والدعاة أن يوضحوا في حملتهم أن هذه العمليات ستكون نتائجها عكسية، وأنها تضر من حيث يظن أصحابها أنها تنفع، وأنها تضرب مدنياً أمريكياً ليحل محله جندي، وتضرب جندياً ليحل محله مائة. وهذه العمليات لا تضعف الولايات المتحدة وتقوي المسلمين في دولهم، بل العكس هو الصحيح،فكلما حدثت عملية ضعف موقف ولاة الأمور، وزادت الضغوط على الأمة، ووجدت القوى الغربية ذريعة لتكثيف وجودها في المنطقة، وتشديد قبضتها عليها.

ومعلوم أن المتضرر الأكبر من الحرب هو من تدور الحرب في مجاله المكاني، حتى إذا لم يكن أحد أطراف الحرف... والمتضرر الكبير بل الوحيد من تصارع عصفورين على سنبلة قمح، هو السنبلة، أما العصفوران فيتناثر ريشهما ساعة، ثم يطيران بعيداً... من هنا يجب بيان خطر العمليات التي تستهدف الآخرين في البلدان الإسلامية.

☆☆☆

حسابات الدعاة

يرى الكثير من الدعاة وجوب لزوم الصمت، والبعد عن اتخاذ مواقف واضحة من العمليات التي تحدث في هذا البلد الإسلامي أو ذاك، وهم يرون أن من شأن الموقف الواضح إن كان ضد توجه التيار العام أن يفقدهم شعبيتهم...وطبعاً فمن حق هؤلاء العلماء والدعاة التفكير بهذه الطريقة ووفق المعطيات التي يتطلبها أو يفرضها الواقع. غير أن هناك معطيات جديدة، وتحولات خطيرة، لم يكن أكثرها مطروحاً من قبل يجب أن يدركوها، كما عليهم أن يدركوا أيضاً أن الأمر أشد عليهم وأكثر حساسية لأنهم يجدون أنفسهم بين جهات عدة ضاغطة، وعليهم عاجلاً أن آجلاً أن يرجحوا إحدى تلك الجماعات.

إن هناك جهات تطلب منهم، وسيزداد طلبها مستقبلاً أن يوضحوا موقفهم إزاء ما يحدث، وهذه الجهات قد

تكتفي منهم اليوم بالتلميح، أو التعميم، لكنها لن تقبل منهم مستقبلاً إلا بالتوضيح والتصريح، لذلك عليهم أن يحسموا أمرهم من الآن.

إن مشكلة الدعاة تكمن في كونهم أصبحوا يستمدون شرعيتهم من أتباعهم وأشياعهم، بل إن بعضهم قد يرى أن قدْح أصحاب المشروع العنيف في موقفه يعدّ غزلاً له، وإنهاء لشعبيته، بل حتى قدْحاً في منهجيته، واعتقاده أيضاً.

وكان من المفترض أن يكون الدعاة والأشياع حاكمين على الأشياع موجهين لهم، لا أن يكون هؤلاء الأشياع هم الذين يضبطون حركة ووجهة العلماء والدعاة، لأن العربة تصبح بذلك هي التي تجر الحصان، وفي ذلك من قلب الأمور ما فيه، وهو من إنجاب الأَمَة لربتّها. لذلك فمن الواجب أن يعرف الدعاة اليوم مآل أي خيار من خياراتهم.. إن علماء ودعاة المنهج السلفي هم أوائل الضحايا في أية تحولات تتدافع الأحداث نحو بلورتها، وببساطة ووضوح أكثر، فإن هذه العمليات العنيفة إذا تواصلت ستؤدي إلى اشتداد المحاصرة للتيار

الإسلامي في المملكة من طرف جميع القوى المتضررة من هذه العمليات، وآنذاك قد يكون قدر هؤلاء العلماء الدعاة الإسكات والتصميت، فيفقدون رسالتهم بذلك، وينحشرون في الزوايا المعتمة، وهنا يطرح سؤال كبير نفسه وهو: هل وُجد العلماء والدعاة ليصمتوا ويتآكلوا في الزوايا؟

وفي القرآن بيان فقد بعث الله موسى عليه السلام برسالة، لذلك كان لابدّ أن يحافظ على وجوده ضمن المرسل إليهم، وكما أنّ الله عزّ وجلّ وجّه يونس عليه السّلام لتركه مجال «رساليته» إذ ذهب مغاضباً من قومه، فإنّه سبحانه اعتبر بُعد المصلح عن مجال إصلاحه «المجتمع» أمراً من «عمل الشيطان» طبعاً لأنّ الشيطان يفرح حين ينعدم الإصلاح في المجتمع، فيخلو له الجوّ لنشر الفساد والرّذيلة والانحراف.. وفي سورة القصص شيء رائع من هذا، قال تعالى: {ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه

موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدوٌّ مضلٌّ مبين * قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين * فأصبح في المدينة خائفاً يترقّب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنّك لغويٌّ مبين * فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين} [١٤ - ١٩].

إنّ قتل «فرعوني» يعدّ ها هنا «من عمل الشيطان» وظلماً للنفس {إني ظلمت نفسي} ومدعاة استغفار {فاغفر لي...فغفر له} كما يعدّ إجراماً {فلن أكون ظهيراً للمجرمين} وجبروتاً {إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض} وهو بَعد كلّ هذا مناف للإصلاح: {وما تريد أن تكون من المصلحين}، لذلك فإن وقوع المسلم والداعية بالأساس فيما يكون من نتائجه التضييق عليه أو إحالته على البطالة وترك مهمته في الإصلاح والبيان أمر

يعد من الأخطاء الفادحة.

والدعوة السلفية تأخذ قوتها وانتشارها في المملكة من التبني الرسمي لها، فإذا ما حدث - لا قدر الله - وأن فرض على الخليج العربي نموذج الديمقراطية والحرية الذي تبشر به أمريكا، فإن التيار السلفي سيجد نفسه ضعيفاً أمام تيارات أخرى أكثر تنظيماً وأقوى مناورة، لذلك على هذا التيار أن يدرك أنه الآن يعيش وضعاً أمثل، وأن من مصلحته أن يستميت في الدفاع عن هذا الوضع واستبقائه، وعليه أن يفكر جيداً في الواقع الذي سينفتح عنه الباب الذي يقف الآن أمامه، يدقّه بقوة ويصر على فتحه. والصورة واضحة، لا تحتاج إلى كثير تخمين أو اختلاف رؤى... فإن ازدياد وتيرة العملية العنفية في المملكة يعني واقعاً أمنياً يحتاج إلى ضبط من طرف الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا الضبط سيأخذ أشكالاً عدة أقلها ضغط أمريكا على السعوديين ومطالبتهم بإنهاء ظاهرة العنف التي تهدد مصالحها في المنطقة كلها، وأكبرها أن تتدخل أمريكا ذاتها لضبط الأمور وإنهاء هذه الظاهرة، وفرض واقع جديد من

سماته إنهاء الفكر الديني السلفي الذي في اعتقاد أمريكا هو الذي فرّخ ظاهرة الإرهاب، وآنـــذاك يحـــاصر العلمـــاء والدعاة وينتهي دورهم.

لذلك عليهم من الآن أن يحسموا أمرهم، وأن يدركوا مقدار الخطر المحدق بهم، وبمنهجهم الإسلامي الصـــافي. لذلك فوقوفهم الآن في وجه المد العنيف هو وقوف للحـق لئلا يضيق على العلماء، وتصادر الدعوة ويضيع المنـــهج، وتتحول أرض الحرمين إلى بقعة يتناعق فيـــها المتنـــاعقون وبحرية بأفكار إلحادية ومعتقدات باطلة، ولكي لا تـــرث المنابر جماعات ما فتئت تنتظر ذلك بفارغ الصبر لترفع من فوقها صوت معتقداتها وشرْكها وصوفيتها، فهل يـــدرك العلماء والدعاة أنهم يدافعون بوقوفهم في وجـــه ظـــاهرة العنف عن الإسلام والعقيدة وعن أرض الحرمـــين وعـــن القيم والأمن قبل كل شيء آخر؟!! وهل يدركون أيضـــاً أن هذه الثلة التي تقوم بهذه العمليات ستصل بـــالأمور إلى أفدح خسارة سيعرفها الإسلام والمسلمون في كل هـــذه القرون المتأخرة؟!! فمن يوقف هذه الجريمة في حق الإسلام

والدعوة السلفية؟!!

إن القيام بعملية أو بعشر عمليات، ثم الانسحاب وترك المجال للعدو للسيطرة والاستحلال وتسيير الأمور مثلما يريد ورسم الخرائط كما بدا له، برفع المجرورات، وخفض المرفوعات، لا يعدّ نصراً للإسلام ولا للمسلمين.. فلماذا يصر العلماء والدعاة على الصمت على عمليات كل ما تقدمه هي أنها تعطي المبرر للآخرين لاستحلال الأرض وضرب الأمن ومصادرة الحق.. أليس ذلك من الفتنة؟!! أليس ذلك من عمل الشيطان كما عبّر عنه موسى عليه السلام؟!!

ثم أن صمت علماء ودعاة الإسلام، أو ترددهم وعدم حسمهم لمواقفهم، مع حسم غيرهم من الجماعات والفرق والفعاليات لموقفها ووقوفها ضد العنف وجماعاته سيرجح كفة هذه الفرق والجماعات ويقوي موقفها على حساب موقف التيار الإسلامي.

لا بأس هنا أن ننتقل إلى نقطة هامة لمناقشتها، إذ لا يكتمل المراد إلا بها، وهي: الأفق المسدود.

قد يتوهم بعض الدعاة أن الأفق معتم، وأنهم بذلك يتوجسون خيفة من الإدلاء برأي أو إصدار فتوى يندمون عليها يوماً.. وهم يقولون بذلك أن الأفق المعتم، والمستقبل غير الواضح يوحيان بوجوب التزام حمّال ذي وجوه، لا يحسب عليهم لا من طرف هؤلاء ولا من طرف أولئك. ولئن كان هناك ما يصلح لتقييم هذه الفكرة والرؤية، فلن يكون أدق من عبارة «التخبط» والذي هو حال لا تصلح لمن يحملون أمانة الدعوة حاضراً ومستقبلاً.. فهل يظن هؤلاء أن مجموعة أو مجموعات متطرفة ستستطيع في الأخير فرض رأيها ببعض المتفجرات وبنادق الصيد في واقع تتهيب فيه وزارات دفاع دول مما يتهددها من طرف القوى الكبرى؟!!

هل يمكن أن نتصور أن هذه الجماعات ستصل إلى حد إقامة دولة الخلافة التي يرهبها الجميع؟!!

إن عدد المسلمين المجتمعين اليوم على الكوكب الأرضي يقارب السدس من مجموع السكان وهذا السدس حتى وإن كان على قلب رجل واحد فإنه سيبقى ضعيفا لا

يستطيع حسم الأمور لصالحه نتيجة لوضع الضعف والتردي الذي يعيشه أمام الكيانات الأخرى غير الإسلامية والتي تعد فيها الهند لوحدها مماثلا للمسلمين في العدد وفائقا لهم في القوة، فأين المسلمين من الولايات المتحدة والإتحاد الأوربي والصين و.. و...و حتى إسرائيل البلد الذي لا يتجاوز عدد سكانه الثمانية ملايين؟!

لذلك فإن الخاتمة محسومة للأحلاف المتألبة على المنطقة برمتها، والتي تتلقى اليوم من هذه الجماعات أثمن هدية، وهي هذه العمليات التي ستستعملها مبرراً لاستكمالها مشروعها الآثم في احتواء المنطقة وإحلال معاييرها فيها وهو أمر يطرح تساؤلاً كبيراً عن إمكانية وجود مؤامرة تسيرها بعض الجهات والجماعات والطوائف المستفيدة من ضرب الدعوة السلفية بضرب الأمن والاستقرار في المملكة.

هنا يُطرح سؤال هام جداً على العلماء والدعاة وهو:

هل مشروعكم وبرنامجكم هو مشروع وبرنامج هذه الجماعات؟

فإذا كان ذلك كذلك، فلكم الحق في الصمت وعدم إظهار الموقف الصريح، أما إذا كان برنامجكم وطريقتكم أو لنقل دعوتكم ورؤاكم تختلف عن برنامج وطريقة ورؤى هؤلاء فإننا نؤكد وجودكم أمام احتمالات عدة، دقيقة وهامة وهي:

إما أن يكون خيار هؤلاء غير خياركم، لكنه لا يؤثر على خياركم، ولا يشوش عليكم، ولا يُدفّعكم ثمنه، وآنذاك فلكم دينكم ولهم دينهم.

وإما أن يكون خيار هؤلاء غير خياركم، لكنه يشوش عليكم ويؤثر على خياركم ويدفعكم ثمنه، ويحرك مواقعكم، وآنذاك فعليكم أن تتحركوا وفق ما يستدعيه ويتطلبه خياركم أنتم، لا وفق ما يفرضه خيار أولئك، لأنه ليس خيار لكم.

☆ ☆ ☆

الاحتواء أم العزل؟

الحل الأمني المجرد لا يصلح دائماً لمعالجة الأزمات التي ترجع إلى خلفية فكرية، ذلك لأن الضغط أو المحاصرة قد تلج الآخر إلى الاختباء والدخول في سبات ووقف العمل، لكنها لا تلجئه إلى ترك معتقداته.

وفي مواجهة الظاهرة العنيفة في المملكة العربية السعودية لا يجب أن يكون الهمّ فقط منصبّاً على المعالجة الأمنية، لأن ذلك يعني عند الطرف الآخر واقع (الخلايا النائمة).

والخلايا النائمة ليست منعدمة، إنها موجودة.. فقط هي متوقفة عن العمل وهو ما يعني بقاء خطرها، وتربّصها، مما يعني بقاء حالات الحذر والترقب والتحفز والتوتر قائمة.

لذلك فمن الواضح الجلي أن الحل الأمني (المجرد)

يوقف الحركة لكنه لا يوقف الفكرة.. وهنا يأتي دور العلماء والدعاة، والذي يجب أن يكون واضحاً عندهم أن الذي يهمهم أكثر ليس هو عزل ظاهرة العنف، بل احتواؤها.

وعزل هذه الظاهرة معناه دفعها نحو أقصى حدود التطرف، لذلك يجب أن تنعقد النية بدء على البيان والتوضيح، وهنا أيضاً يجب تكبير الصورة النفسية أو الفكرية عند هؤلاء الشباب ليمكن معالجتها والتعامل معها بحذق.

إن الذي عند هؤلاء الشباب مما ينطلقون منه ويستندون عليه في عملياتهم ومشروعهم هو فكرة دينية تنتهي في الآخر حيث تنتهي فكرة أو اعتقاد كل الجماعات الإسلامية، وهو طلب الجنة ورضى الله، وفي هذه النقطة يجد العلماء والدعاة أنفسهم قريبين من هؤلاء الشباب الذين احتوشتهم الأفكار العنيفة باسم الدين، ومن هنا يجب أن ينطلق العلماء والدعاة في حملتهم التعبوية وفي بياهم من حقيقة كون هذه الجماعات تنظر إلى عملها

على أساس أنه مرضاة لله.

والمطلوب هو كسر هذا المستند العقدي الذي هو الركيزة الأساسية عند هؤلاء.. وكسر هذا المستند يكون بتحويل صورة الطاعة عند هؤلاء إلى صورة معصية تغضب الله، وبيان أن زعزعة أمن المسلمين وإذهاب ريح الإسلام وفتح باب الفتن وتعطيل الحدود، وتغيير المنظومات الدينية ووقوع منابر الحرية في يد الضلال، وتحول مكة والمدينة إلى ساحات لنشر الرذيلة ونشاط الأحزاب الملحدة، وانفتاح باب الكفر والفسق والحكم بغير ما أنزل الله رعاية الدول الكبرى سيتحمل مسئوليتَه العظيمة أمام الله هؤلاء الشباب الذين فتحوا باب ذلك بعملياتهم وأعطوا الأعداء المبرر الذي كانوا ينتظرون. لابد من الاستفادة من كون هذه الجماعات ولدت من فكرة لاقت عندهم فراغاً عقدياً أو نفسياً أو فكرياً. والصراحة أنه ما انتشرت هذه الأفكار في جوار الدعوة التي يقوم عليها العلماء والدعاة إلا لضعف فكرة هؤلاء الدعاة، وقصور ما عندهم من الفكر عن احتواء تطلعات الشباب

والإجابة المقنعة عن أسئلتهم، لذلك فإن قراءة المشهد تعني فيما تعنيه أن هؤلاء الشباب ولدوا في حيز فــل العلمــاء والدعاة وفي النقطة التي تحول فيها هؤلاء الشـــباب عـــن الاستماع إلى ما يقوله هؤلاء الدعـــاة معطـــين عقولهـــم وأسماعهم لأفكار أخرى رغم بعدها الجغرافي..

واحتواء هذه الجماعات يعد اليوم امتحانـــاً لأفكـــار وللقدرات أهل العلم والدعوة في المملكة العربية السعودية، وبقدر ما تكون طريقتهم ناجحة في الاحتواء، وأفكـــارهم أقوى في الإقناع، بقدر ما تُحلّ المشكلة.

لذلك طرحنا سؤالنا: الاحتواء أم العزل؟

إن الأنفس مطبوعة على رفض وتنكب مـــا يســـوقه الأعداء ولو كان حقاً. وإحساس هذه الجماعات بأن أهـــل العلم يعادونها يجعلها لا تلتفت أبداً إلى ما يقولونـــه ومـــا ينصحون به، لذلك لابد من اعتماد دعـــوة هـــؤلاء إلى الرجوع بالنقاش المقنع لا بالســـبّ والشـــتم.. هـــذا إذا المطلوب فعلاً إنهاء ظاهرة العنف، أمـــا إذا كـــان المـــهم والمطلوب هو السب والشتم فإن ذلك لن يعطي أية نتيجـــة

بل سيزيد الطين بلّة.

وهنا يمكن أن نفتح قوساً للتساؤل:

ما دامت هذه الجماعات قد اقتنعت بأفكار غير أفكار العلماء، فهل هذا يعني أن أفكار هؤلاء العلماء والدعاة كانت أضعف من غيرها، ولذا لم تستطع الثبات أمامه، وظهر الفكر العنيف بين ظهراني الدعوة السلفية؟!!

وللجواب نقول أن القضية ليست قضية قوة معتقد أو فكرة، بل قضية قوة أو ضعف أسلوب توصيل وإقناع بهذه الفكرة أو تلك.. وفي الوقت الذي كانت فيه المنظومة القائمة على نشر أفكار العنف تحشد كل قوتها وتستند إلى العوامل النفسية الحاقدة على الغرب، والاستفادة من واقع ما يتعرض له الفلسطينيون من الإساءة الإسرائيلية المرتبطة في دعمها بالغرب، وغير ذلك مما يعد وسائل إقناع قوية، كان غيرهم من العلماء والدعاة يبتعدون عما يجري في العالم ويحشدون كل قواهم للحديث عن أمور تقليدية لا تمس التبلورات والتحولات والأفكار والمشاريع الحادثة الجديدة والتي ستحكم كل ما سيقع في العالم سواء من

الناحية الفكرية أو السياسية أو حتى الدينية، وهذا طبعاً الذي أضعف موقف هؤلاء الدعاة الذين كان الاتهام الرئيسي لهم هو بعدهم عن فهم الواقع، وهذه مسألة هامة، والشباب المسلم لا يطالبون الداعية بأن يتخذ موقفاً بعينه يحددونه هم في أي قضية طارئة، لكنهم يطالبونه بأن يعايش الأحداث، وأن يتفاعل معها وأن يتخذ منها مواقف تدل على أنه موجود وكفى، وكان بإمكان الدعاة أن يعيشوا تلك الأحداث ويواكبوها ويقفوا معها مواقف تستجيب لتوجهاتهم الشرعية، وللمصلحة الدينية ولانتماءاتهم الوطنية والأممية.. وكان ذلك وحده قادراً على استيعاب تطلع الجماهير التي صارت تجد في القنوات ما يشبع فضولها ويوجه حركاتها، أكثر مما تجد في المساجد وأشرطة وكتب الدعاة.. وهذا الذي أوجد زهد الشباب في العلماء والدعاة، وفتح عندهم الأبواب لدعاة العنف وأفكار العمل المسلح.. لذلك على العلماء اليوم أن يستوعبوا المرحلة وأن يحتووا الظاهرة العنفية التي تستهدف المملكة العربية السعودية فقط ووفق خطب ودروس غير

مدروسة العواقب يمكن أن تزيد الفتنة استفحالاً، والطين بلّة والتشدد تشدداً، وقد نهى القرآن مثلاً عن سبِّ آلهة الكفار لئلا يسبوا الله عدوّاً بغير علم..

والاستفزاز للآخر لا يأتي بخير، والأولى احتواؤه بالعلم والفقه والمعرفة والبيان والإقناع..

وعلى ذلك التعويل.

☆ ☆ ☆

خاتمة

هذه بعض ملامح ومنطلقات لا يجوز تجاوزها في أي مواجهة مدروسة أو مشروع احتوائي لظاهرة العنف في المملكة العربية السعودية، مع العلم أن الضبابية المواقف والتردد في اتخاذها يعد مشكلة كبرى عند من لا يصح ذلك في حقه ممن يتعين عليهم البيان من العلماء والدعاة، ولأن المركز يدرك جيدا أن إشعال الشموع أولى وأشد تثبيتا من لعن حنادس الظلمات فقد رأى إخراج هذه الدراسة إسهاما في نزع فتيل فتنة أولى ضحاياها هو الإسلام وصفّ الأمة الذي نحرص على وجوب المحافظة عليه أمام الرياح التي تستهدفه.

☆ ☆ ☆